

عن أرباب الصعير في الفرد الحارس

## الرشيد الأسواني

للأستاذ محمود عزت عرفة

(تمة ما نشر في العدد الماضي)

### دعواه الخيرية في اليمن

آلت هذه الدعوى بالرشيد إلى القبض عليه وتجريده ، ثم إنفاذه مكبلاً إلى قوص وسجنه بها ، وكان حاكمها « طرُخان » ممن يُسرون له عداوة قديمة ؛ فشهره في الأسواق ، ولم يقصر في إضعاف العقوبة له ، ولكن سرعان ما ورد الأمر من قِبَل الملك الصالح بإطلاق سراح الرشيد ، ولما بعض على اعتقاله أكثر من ليلتين ( وكان الصالح إذ ذاك والياً على منية ابن خصيب )

ومن الغريب حقاً أن يكون هذا كل ما ينال الرشيد من عقوبة على دعواه الجريئة ؛ وما من ريب في أن التهمة - بهذا الوضع - مبالغ فيها ، ولا سباً إذا ذكرنا أن بئس منه إلى اليمن وقعت في عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، والد الخليفة الظاهر الذي رثاه الرشيد أول مقدمه إلى القاهرة

وقد حدد موعداً للأدوى بعام تسع وثلاثين وخمسة مائة - أي قبل وفاته في رثاء الخليفة الظاهر بمشـر سنوات - فهو لم يكن وقت هذه البعثة على شيء من الجاه أو النفوذ ، يكفل له النجاة من عواقب دعوى جريئة ، كذلك التي نسبت إليه ، إن كان يجدي في مثل هذا نفوذ أو جاه

تم ، قد يكون لسى أخيه « المهذب <sup>(١)</sup> » الذي كان عظيم الخطوة لدى الملك الصالح أثر في العفو عنه ... ولكن ، هل يتفق مع نوع هذه التهمة أن يأمر الصالح - بعد ليلتين من وصول الرشيد - بإطلاق سراحه والإحسان إليه ، فيحضره وإلى قوص من سجنه مكرماً - كما يذكر ياقوت - ؟

التهمة ولا شك مبالغ فيها - كما ذكرنا - وغير مستبعد أن تكون قد دُست عليه في جملتها وتفصيلها ، ثم تبينت برأته منها بوجه لم يدع إلى مواخذته سيلاً . ويؤيد هذا الرأي عندنا

(١) سنذكره بكلمة في الأسطر التالية

أن الأدوى ( صاحب الطالع السعيد ) يؤكد برأته من تهمة دعوى الخلافة بدليل يمكن أن نتمده قطعاً . فقد ذكر أنه ذهب إلى اليمن داعياً للخليفة الحافظ ، متلقياً بعلم المهديين ، حتى قال فيه بعض شعرائهم من قصيدة بعث بها إلى صاحب مصر :

بمئت لنا علم المهديين (م) ولكنه علم (أسود) !

ثم قال : « وقد وقفت على محضر كتبه باليمن ، فيه خط جماعة كثيرة ، أنه لم يدع الخلافة ، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة ، رأيت المحضر بأسوان <sup>(٢)</sup> »

ويذهب ابن خلكان في تمليل الغضب عليه واعتقاله مذهباً آخر - دون أن يشير إلى قصة ادعائه الخلافة - فيذكر أن الرشيد كان قد مدح جماعة من ملوك اليمن ، منهم علي بن حاتم الحمدي الذي قال فيه :

لقد أجدبت أرض الصميدوا خطوا فلست أنال التحط في أرض حيطان  
وقد كفلت لي (مأرب) بما ربي فلست على (أسوان) وما بأسوان  
وإن جهلت حتى زعانف خندف فقد عرفت فضل غطارف همدان  
قال : حسده الداعي في عدن على ذلك ، وكتب بالآيات

إلى صاحب مصر ، فكانت سبب الغضب عليه

### المهذب أمير الرشيد

كان من أسباب تعجيل العفو عن الرشيد ما سببه أخوه المهذب « حسن بن الزبير » لدى الملك الصالح ؛ وكان لديه أثيراً وبه مختصاً والمهذب شاعر معروف ، مجيد في نظمه وفي نثره . ذكره المهذب الأصفهاني ، فأجزل في الثناء عليه ثم قال : هو أشعر من الرشيد ، والرشيد أعلم منه . ومن شعره قوله :

هم نصب عيني أنجدوا أم غاروا ومضى فؤادي أنسفوا أو جاروا  
وهو مكان السر من قلبي وإن بمدت نوى بهم ووسط منار  
تركوا المنازل والديار ، قالهم إلا القلوب منازل وديار  
واستوطنوا البيد الففار فأصبحت منهم ديار الأنس وهي قفار  
وله أيضاً هذا البيت الذي يستشهد به علماء المعاني كثيراً ،

في باب الإطناب :

وما لي إلى ما سوى النيل غلة ولو أنه - أستغفر الله - زرم

وهو من قصيدة يمدح بها كثر الدولة ابن متوج أولها :

بأي بلاد غير أرضي أخيم وأي أناس غير أهل أيمم

ومن أشهر شعر المهذب قصيدة له تسمى « التواحة »

(١) الطالع السعيد ص ٥٠

شيركوه ، وقد جرت بينهما مكاتبات انتهى أمرها إلى شاور تخفق عليه حقناً شديداً وجد في طلبه ولكنه اختفى ... واعتقل شاور المهذب - أبا الرشيد - لنفس المهمة . ولم يُجَدِ لديه ما استعطفه به من رقيق الأسمار ، حتى التجأ إلى ابنه أبو الفوارس شجاع ابن شاور - وكان كريم النفس خيراً - فتقبل منه مدأخه التي بعث بها إليه من معتقله ، وعنى بأمره أبلغ عناية ، حتى تمكن من إخراجه من محبسه ، ثم ضمه إليه ورّقه من حاله واصطنعه ... ولم يمتد حبس الحياة بالمهذب بعد هذا طويلاً فأتى في ربيع الثاني من سنة ٥٦١ هـ

وفي عام ٥٦٢ هـ عاد شيركوه إلى مصر فاستولى على الجزيرة وهزم الإفرنج في الصعيد ، ثم مضى إلى الإسكندرية فافتتحها ، وجعل عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف . ولما عاد شيركوه إلى الصعيد حاصرت عساكر الإفرنج والمصريين مدينة الإسكندرية ؛ وقد جاهد صلاح الدين في سبيل الاحتفاظ بها ثلاثة أشهر . وظهر أثناء ذلك أبو الحسين الرشيدى بعد أن طال اختفاؤه ، وأقبل يقاتل بين يدي صلاح الدين بسيفه ؛ ولم يزل معه حتى تم رفع الحصار باتفاق أجراه الطرفان إثر عودة شيركوه ، وبذلك تم انسحاب عسكر الشام

### الفصل على الرشيد ومقتله

لم يمض غير يسير على هذه الحوادث حتى وقع الرشيد في قبضة شاور وكان حقه عليه بالنكا . قال ياقوت : « اتفق أن ظفر به على صفة لم تتحقق لنا ، فأمر بإشهاره على جبل ، وعلى رأسه طرطور ، ووراءه جلاوز ينال منه » وقد رؤى على هذه الحال الشنيعة وهو ينشد : إن كان عندك يا زمان بقية مما تهين به الكرام فهاتها وشنق الرشيد وهو على حال عجيب من التجلد وفرط الاحتمال ؛ وقد ظل يتمم بآيات من القرآن الكريم حتى فاضت روحه ، وكان ذلك في المحرم من سنة ٥٦٣ هـ

ورواية المنذرى عن مقتله تقول : « دخل مع الناصر (١) الإسكندرية وكتب في أمور ، فأخذ شاور وعذبه عذاباً شديداً . فبلغه أنه قال : « الهوان والعذاب من الملوك في طلب الملك ليس بهار . فأمر به فضربت عنقه »

وقد دفن الرشيد في الموضع الذي صلب فيه ؛ ثم نقلت رفاته بعد عام أو أكثر إلى مقبرة خاصة في مدائن القاهرة .

(جربا) **محمود هزت هرفة**

(١) يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يقب بالناصر إلا بعد مقتل شاور عام ٥٦٤ هـ وتولية الوزارة للعاصد . ثم لما توفي في العاصد تخلوا عام ٥٦٦ هـ تولى صلاح الدين سلطة مصر وأسس الدولة الأيوبية

كتب بها إلى داعي اليمن بمدحه ويستعطفه على أخيه ، ويقول فيها : ياربِ أُنْ رَى الأُجبة يَمْعُوا ؟ هل أُنْجِدُوا ومن بعدنا أم أنْهموا ؟ رحلوا وقد لاج الصباح وإنما يسرى إذا جُن الظلام الأُنْجِم وتموضت بالأنس روحى وحشة لا أوحش الله النازن منهموا لولا هو ما قتُ بين ديارهم حيران أستافُ التراب وألثم وقد أجاب الرشيد على هذه القصيدة بميمية من رزنها قال فيها : رحلوا فلا خلت النازل منهموا ونأوا فلا سلت الجوامح عنهموا وسروا - وقد كتبوا الغداة مسيرهم -

وضياء نور الشمس ما لا يُكتم وتبدلوا أرض العقيق عن الحمي روت جفونى أى أرض يعموا ما ضرهم لو ودّعوا من أودعوا نار النرام ، وسكّوا من أسلوا هم في الحشا إن أعرقوا أو أشاموا أو أيمنوا أو أنجدوا أو أنهموا

### في غمرة السباسة

خرج الرشيد من معتقله موفور الكرامة ، ممتلئ النفس بالأمال الجسام ؛ وقد انتقل بعد حين إلى القاهرة فاحتل مكانة مرموقة بين أربابها .

وكانت أبواب المناصب أمامه مفتوحة ، ومبيله إليها معبدة . ولكن همته كانت أبعد من أن تقف من ذلك عند غاية ، وقد اختير في عام ٥٥٩ هـ ناظراً على الدواوين السلطانية في نجر الإسكندرية ، فكان ذلك على كرم شديد منه ؛ ولعله كان أشد اهتماماً وقتئذ بما يجري في مصر من أحداث سياسية ، اجتذبه تيارها - بعد حين - فغاض غمرتها في جرأة وطموح كلفاه حياته وتفصيل ذلك أن أبا شجاع شاور بن بجير - وكان والياً على الصعيد الأعلى - قصد القاهرة بعد مقتل الملك الصالح عام ٥٥٦ هـ وتمكن من قتل العادل وزير الخليفة العاصد (آخر خلفاء الفاطميين) ، واحتلال مكانه من الوزارة . ثم لم يلبث أن خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر فطرده من القاهرة وتولى الوزارة بعده .

وقد ذهب شاور إلى الشام مستنجداً بالملك الصالح نور الدين محمود زنكي أمير حلب ، الذى أمده بجيش يقوده أسد الدين شيركوه (عام ٥٥٩ هـ) فانتصر على ضرغام وتبوأ منصب الوزارة من جديد . ولكن ما عمم أن تفكر لحلفائه وخان عهد من نصره ، واستعان بملك الإفرنج صاحب بيت القدس على محاربتهم وطردهم ؛ وبعد مفاوضات وحرب وحصار انسحب شيركوه مرتدداً بجيشه إلى الشام .

وفي أثناء هذه الحوادث كان يبدو ميل الرشيد إلى نصره